

صورة مكة المكرمة في شعر طاهر الزمخشري

Image of Makkah in the poetry of Tahir Zamakhshri

Arslan Zareef Qureshi

PHD Scholar department of Arabic, NUML, Islamabad

Email: arslanzareefqureshi@yahoo.com

Dr. Amanullah Rana

Assistant professor Department of Arabic, NUML
Islamabad

Email: raullah@numl.edu.pk

Abstract

This Article has a study of locative of tahir poet accordingly, through linking the locative to the poet script that contracted the locatives since era to the new era with Tahir Zamakhshri, so we have presented the relation between the poet and the makkah al mukaramah in the Arabic abstraction, and that is a highbred history of poetry renewal of what have been lost of it. Then I have continued the article about the importance of the locative in the Saudi poetry and we have reached to the exclusively that it has honoured.

Makkah is the best known religious city in the world today. Because of its function as the center of an essential Islamic duty, the hajj, or pilgrimage, wich is

incumbent on every muslim, man and women, once in their lifetime.

Keyword: Image of Makkah in the poetry of Tahir Zamakhshari

طليلة البحث:

ولد طاهر عبدالرحمن الزمخشري في السابع والعشرين من شهر رجب لعام ألف وثلاثمائة واثنين وثلاثين هجرية.¹

يقول الزمخشري عن نشأته: "أما الخطوات الأولى من حياتي، فأنا لا أعرف شيئاً يذكر عن طفولتي، كل الذي أعرفه سماعاً أُنِي ولدت في مدخل بيت من بيوت مكة، ونشأت طفلاً في ردهات المحكمة الشرعية، في رعايتي والدي ورعاية الناس الطيبين من الجيران، ولا زلت أذكرهم وأذكر لهم هذا الجميل علي".²

بدأ حياته العلمية عندما تهيأت له الظروف وواصل تعليمه الثانوي بمدارس الفلاح بمكة المكرمة، وتحصل الشهادة فيها عام 1930م، لم يستطع إكمال دراسته بعد إكمال الدراسة الثانوية بسبب سوء الأحوال المادية، مما جعله يبحث عن عمل. وبدأ حياته العملية في الثامنة عشرة من عمره وحصل على كثير من الوظائف الحكومية وغير الحكومية في الفترة من 1349هـ إلى 1389هـ. وكانت أول الوظائف التي التحق بها وظيفة كاتب في إحصاء النفوس التي حصل عليها من طريق مسابقة أخذ فيها المركز الأول، ثم بدأ العمل بمطبعة الحكومة عندما قدمه أحد الجيران للأستاذ محمد سعيد عبد المقصود.

وعاش بعد ذلك بجوار أمه بالمدينة المنورة تلبية لرغبة والده، الذي أراد له ذلك، و تزوج في المدينة المنورة بابنة خاله، والتحق بمهنة التعليم بدار الأيتام.

كما حصل على وظائف كثيرة في حياته ومن الوظائف التي شغلها أيضًا وظيفة سكرتير إداري في أمانة العاصمة المقدسة، وسكرتير لبلدية الرياض، ولكن حنينه إلى المطبعة أعاده للعمل بها مرة أخرى. كما عمل بديوان الجمارك، ثم عمل في الإذاعة السعودية في بدء نشأتها، وكان ذلك عام 1369هـ، وظل يعمل في الإذاعة حتى أحيل على التقاعد.

وكان أشهر عمل له هو برنامج (بابا طاهر)، الذي كان يعده من أجل حبه الكبير للأطفال، وهذا البرنامج أوحى له بعد ذلك - بدخول في مجال الصحافة - الذي برع فيه من إصدار مجلة خاصة بالأطفال أيضًا، وأطلق عليها اسم (مجلة الروضة)، وهي أول مجلة التي ظهرت في السعودية للأطفال، وكان صدور العدد الأول منها في شهر ربيع الأول لعام 1379هـ، تظهر يوم الخميس من كل أسبوع، وقد صدر منها أربعة عشر عددًا فقط، وبعد ذلك توقف صدورها بسبب بعض المعوقات المادية.

توفي الزمخشري في عام 1988م، بعد معاناة طويلة من مرض الكلى، وبعد أن ترك لنا تراثًا أدبيًا وشعريًا، سوف يخلد ذكره مدى الحياة. ودفن بمقابر المعلاة في مسقط رأسه بمكة المكرمة.³

شعره:

كان الزمخشري أحد رواة حركة التجديد في الشعر العربي السعودي، كما كان له السبق في طبع أول ديوان شاعر سعودي، و(أحلام الربيع) أول ديوانه الذي طبع في السعودية، كما أنه مطبوع عربي على مستوى الشعر الحجازي. فالزمخشري بهذا "فتح أمام أخوانه - شعراء الحجاز - بابًا كان من قبل موصدًا."⁴ ثم بعد ذلك ظهرت الدواوين كثيرة التي طبعت في حياته في موضوعات المختلفة، إذ توالى الدواوين الشعرية السعودية في الصدور بعد هذا الديوان. وهو كتب حوالي ثلاثة وعشرين ديوانًا شعريًا، هي: "أحلام

الربيع، همسات، أنفاس الربيع، أغاريد الصحراء، على الصفات، عودة العريب، الأفق الأخضر، الشراع الرفاف، معازف الأشجان، حقيبة الذكريات، نافذة على القمر، عبير الذكريات، لبيك، أصداء الراية، من الخيام، رباعيات صبا نجد، إليها، مع الأصيل، حببتي على القمر، ألحان المعترب، ديوان شعر الحديث، حطام قيثارة، جدة عروس البحر.

وأغراض دواوينه متعددة وكذلك الموضوعات التي تناولها ومنها الموضوعات الدينية والوطنية والاجتماعية والرومانسية والسياسية وأظهر بعض المسرحيات الشعرية وترجمت بعض قصائده بواسطة منظمة اليونيسكو إلى اللغات الإنجليزية، الفرنسية الألمانية.

المكان وعلاقته بالشعر العربي:

العلائق التي تربط "المكان بالقصيدة" كثيرة فالشعر العربي عمومًا، أزدهر بفعل عامل المكان، وخاصة القديم منه، وأظهر تلك العلائق ذلك البناء المتقارب في الشكل والمحتوى بين البيت الشعري والبيت من الأبنية، والتسمية المؤحدة دليل تشابه، كما أن قيام بيت الشعر على دعائم وأساسات إذا احتلت أبحر البيت وزالت عنه صفة الشاعرية، يشبه بتلك القواعد والأركان التي يتكون منها بيت السكني، وينهار إذا تداعت، ومن أوائل الذين انتبهوا انتبه إلى تلك العلاقة الخاصة الناقد ابن رشيق في مقولته: "والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية، قراره الطبع وسمكه الرواية، ودعائمه العلم وبابه الدربه، وساكنه المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون. وصارت الأعاريض والقوافي كالموازن والأمثلة للأبنية، أو كالأواخي والأوتاد للأخبية."⁵

للمكان أهمية كبيرة في الشعر العربي، وقد كتبت أماكن كثيرة كانت ذات صلة عميقة بتجارب الشعراء وحياتهم المدنية، فالمكان هو المركز الذي عاش فيه الشاعر العربي في جميع حياته مع عائلته، وظهرت المظاهر الطبيعية في حياته. وربما سيطر المكان على بعض الشعراء

سيطرة تامة ولعل حديث شعراء الجاهلية في المقدمة الطللية يشير إلى تقلب الحياة، إذ يبرز ملامح التغير الذي أصاب المكان وما حل به بعد رحيل أهله عنه، فهو حديث عنه: "بقايا الأشياء، تلك البقايا التي لا تزال تحتفظ بالماضي، وليس الشاعر إلا بقية شيء أتى عليه البعد والهجر والفراق مثلما أتى المكر والرياح والزمن على معالم المكان."⁶

مكة المكرمة في شعر طاهر الزمخشري:

منذ القديم والشعر العربي غني برموز المكان وصوره، وقد عثرت من خلال هذه الدراسة معان مختلفة عميقة تتجاوز الدلالات على المكان في ذاكرته إلى الدلالات على الوجود الإنساني، ووجدنا في قصائده الحب لمكة المكرمة وأماكنها، وهو عاش في مكة المكرمة. ومما لا شك فيه جميع الشعراء المسلمين يحبون مكة المكرمة بسبب ديني، حيث ولد النبي صلى الله عليه وسلم فيها ولأجل ذلك مكة المكرمة أفضل بقاع الأرض، وقد اتسمت قصائد الشعراء في المملكة السعودية بأنها مليئة بذكر مكة المكرمة وأماكنها. مكة المكرمة هي مدينة لها مكانة رفيعة في قلوب المسلمين فيوجد بها المسجد الحرام ويسافر المسلمون إليها لأداء الحج والعمرة. وجوداً في وجدان الشعراء، فمكة ليست مدونة تاريخية أو جغرافية أو اجتماعية بقدر ما هي مدينة ثقافية وفنية يجلوها الشعر، وتؤلفها الكلمة بقدر ما يحققها الواقع. فمكة المكرمة بمكانتها المقدسة. مهوى الأفئدة الإنسانية المؤمنة به مكاناً عبقرياً معجزاً يلهب قريحة الشعراء، بما يسمو به قصيدهم إلى مكانته الرفيعة التي أعطاها الله تعالى في كتابة الكريم، فعلى الرغم من كثرة الشعر، وتجمع الشعراء الذين نظموا في عبقرية مكة المكرمة، مكانة ومكتنا الذي ضمتهم في قناعة فكرية مذاهب شتى، فإن المذهب الرومانسي في خطابه الوجداني يظل أقربها جميعاً، وأبرز تصوير خلاق، يبرز عبقريتها مكاناً مقدساً، فكانت ضمن النصوص مكيات طاهر الزمخشري بوصفه واحداً من أهم شعراء الاتجاه الوجداني المتميزين والذي يمكن أن يجعله في موضع لائق بين الشعراء الرومانسيين، وعلى

رأسها تلك القصائد التي تنحو منحاً إسلامياً في مكياته التي نحن بعصر الحديث عنها الرومانسي في مكيات الزمخشري هو الأقرب احتفاءً بالخطاب الديني الذي يجدد الصور الرومانسية الوجدانية التي تخاطب الأحاسيس، فكرياً بما يبتعد عن المباشرة والوعظ المنبري، وبما ينأى عن الرومانسية التي تعزل شاعرية المبدع وشعرية النص عن نبض الواقع، وما يمكن أن نراه من خلال قصائد طاهر الزمخشري أنها المعيش اتسمت ببراعة التخلق من خلال رؤية شاعر مكّي مولدًا ونشأة فكانت صوره شعرية أكثر احتفاءً بوسائل شكلت منظومة الروح الوجداني عند الرومانسيين في خطاب ديني، مما يدور حول القلق والاغتراب والشعور بالذنب، فمعظم ملامح المظهر الرومانسي عند الشاعر مصدرها عاطفة الشاعر تجاه المكان ومن ذلك الاشتياق في رحلة الشاعر في غريته، من أجل العلاج، فكانت تهيج مشاعره وتحن للأراضي المقدسة، فيلهب الحنين جوانحه شوقاً، فيعود إلى ظلال الروحانيات، فتنتطق شاعريته تفيض بكل صدق بهذا العطاء الشعري لهذا المكان المقدس في قصيدته: بعنوان "البك"

لبيك رب العالمين

لبيك جئنا طائعين

لبيك بالدمع الهتون يفيضه وجل ورعب

فالعين ترنو للسماء، ودمعها الهدار سحب

والقلب يلهج بالدعاء وقد تلجلج فيه ذنب

لبيك أفواج تلاقت في حماك على نذاك

من كل صوب قد أتتك، وكلها ترجو رضاك

وتطوف بالبيت العتيق، وأنت تشرف من علاك

لتجيب دعوة من دعاك، وقد تندم إذ عصاك

لييك لارب سواك

أنت المحيب لمن دعاك

لييك رب العالمين

لييك جننا طائعين⁷

فهذه القصيدة الجميلة تعبر عن حالة الاشتياق التي تظهر بقلب الشاعر وتأکید الاشتياق للأراضي المقدسة، فظهرت هذه القصيدة جيشاناً ثم سكينه وهدوءاً وهكذا هذه القصيدة تجرى بين حركة العواطف وسكونها. فأشار الشاعر فيها إلى الأماكن المقدسة الطاهرة مع الحنين والشوق لزيارتها، فالمتلقي للأبيات السابقة يجد المظهر الديني الإسلامي عميق ويشير إلى هذا المكان المقدس مكة المكرمة مع العشق في استجلاء رومانسي رهيف لا يتجلى إلا لهذا المكان المقدس، من خلال نور مكة الذي بدد ظلام البشرية.

وتظهر مكة المكرمة من رؤية الشاعر مكاناً مقدساً وتصف مكة المكرمة في العالم مكاناً عظيماً ومقاماً رفيعاً، تصدقه قبل أمنيات البشر أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويردد تلبية مكرر:

وليس لي إلّاك رب

أدعوك، يا رب العباد

في حماك على نداك

لييك أفواج تلاقت

وكلها ترجو رضاك

من كل صوب قد أتنك

وتطوف بالبيت العتيق وأنت تشرف من علاك

لتجيب دعوة من دعاك وقد تندم إذ عصاك⁸

"فنجد في نصوص الزمخشري، أنها تتعد عن الاقتباس المقيد، إلى حيث إعادة صهر الرؤى لتنتقل بجديد من البيان المعاصر، الذي يصوغه الهدي القرآني بلغة رهيبة التلقي وثقة القناعة بما يقول النص المعاصر."⁹

والمطلع على مكيات طاهر في ثرائها وغناها، تشرح في جلاء ما أكدناه من قبل، من حيث تمثلها على مستوى الرؤية والأداء للاتجاه الوجداني الذي يسري في تصويره الخطاب الديني كأحفل ما يكون تحليلًا لسماته، التي تخلق شعرته البيانية ومن هذه القصائد قصيدة (إلى المروتين):¹⁰

أهيم بروحي على الراية وعند المطاف وفي المروتين

وأهفو على ذكر غالية لدى البيت والخيف والأخشبين

أهيم، وقلبي بدقاته يطير اشتياقًا إلى المسجدين

وصدري يضج بآهاته فيسرى صده على الضفتين¹¹

يتضح حب طاهر الزمخشري للوطن والأماكن المقدسة من خلال قصائده تبدو التي تلمح ملاحمها على مخيلته فتنساب مشاعره فياضة بالدمع، وفي قلبه موجود أحاسيس عميقة لوطنه بسبب فراقه، وقد شملت الأماكن المقدسة في قصائده المكية مثل: المطاف، المروتين، البيت. ففي الخطاب الديني الذي اشتملت عليه شاعرية طاهر في تجليه لعبقرية مكة مكانًا، وهو تأكيد على أن عبقرية المكان سبب مباشر إلى عبقرية من عاشه وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ويكتسب مكة المكرمة مقامًا عظيمًا بسبب ولادة النبي عليه

السلام، وأشار الشاعر في قصائده إلى الجانب الثقافي والأدبي وقد أشار إلى ذلك أحد الباحثين فقال: "أما مكة المكرمة فلا تعني هنا سوى المكان الذي يجمع إلى قدسيته البيئية والموقع والمكان باعتبارها مهادًا طبيعيًا للفكر والأدب."¹²

وطاهر من الشعراء الذين نظموا الأبيات التي تضمنت ذكر المسجد الحرام والشوق إليه وإلى الصلاة فيه، وسكان مكة المكرمة أفضل سكان العالم، وأماكنها المقدسة الدينية وحبتها الذي ملأ قلوب المسلمين: وبين يدينا قصيدة نبع فيها شعوره الإسلامي النبيل ووفائه لهذا المهوى المقدس حين يقول:

موطن الإشراق، صداح المنى

يملاً الدنيا ضياء هاهنا

والقداسات السخيات الهبات

منهل يجري بفيض البركات

يعبر الأخيال من ماض لأت

بالهدى فاض نثيراً من هنا

يغمر الدنيا جلالاً وسنا

وهو ينساب دفوقاً محسناً¹³

ويؤكد على ذكر المكان العتيق بقوله:

من هنا الرايات سارت للجهاد

وهي بالفرقان تدعوا للرشاد

حولها الأبطال من كل جواد

بالهدى، بالعدل نادوا من هنا

والصدى باق تحدى الزمنا

وتصدى كل آفاق الدنيا¹⁴

وعبر الشاعر طاهر الزمخشري في قصيدته (أغاريد الصحراء) عن حنينه الذي كان ينتابه الأرض المقدس. عندما كان في مصر أثناء سفره للعلاج وقضى فيها مدة طويلة بعيدا عن مكة المكرمة و المواطن المقدسة، بسبب فراقها تشوقه نفسه إلى بلده لأن بلده منبع النور ومهبط الوحي، فهذا شعور يخالج كل مسلم، كما أنها مسقط رأسه، فالإنسان الوفي لوطنه يحن إلى بلده وموطن صباه.

كانت على هذه الإطلالة بعض النماذج من المكان المقدس عند طاهر تظل تنطق في حقيقتها بأنها نصوص جيدة ولود، تقبل آفاق التأويل نلمس ذلك من بداية القصائد إلى نهايتها.

تظهر بعض الأبيات منه حول موسم الحج بإبداعاته الشعرية سنة بسنة، واقفا مشاهد مختلفة من الحج لا يتسع المجال لذكرها جميعاً، ووجدنا عنده قصيدتان بعنوان ((موكب الحجيج)) نشر واحدا منها في ديوانه الثاني ((همسات)) الصادر عام 1952م، قال في مطلعها:

فجر عيد مكلل بالسعود

غمر الكون بالضياء الفريد

فجر عيد به الترانيم تسري

والأمانى تندى بعطر الورود

فجر عيد به التساييح تشدو

والصدى العذب ساحر التغريد¹⁵

¹: المنهل، العدد 264 السنة 54 المجلد 499، ذوالحجة 1408، يوليو أغسطس 1988م، ص:182.

Almunhil, Aladad 264, alsanah:54, volume,49, zulhajjah 1408, june –august 1988, p:182.

²: الاثنية، جدة، الناشر عبدالمقصود خوجة، ط:1403هـ، 1983م، ص:44.
Alasniyah, jiddah, Abdul Maqsood khawaja, v:1,1403 h, 1983, p:44.

³: مريم سعود عبدالعزيز بوبشيت، شعر طاهر زمخشري، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة، كلية الآداب، عام 1988م، ص: 7-14.
Maryam Saud Abddul Aziz boobsheet, shir Tahir Zamakhshri, risalah majisteer jamiah qahira, kuliyat adab, aam 1988, p:7-14.

⁴: طاهر الزمخشري، مجموعة النيل، المملكة العربية السعودية، جدة، تامة، الطبعة الأولى، 1983م، ص:1.

Tahir Zamakhshri , majmuaat neel, almumlikah al Arabia alsaudia, jiddeh, tahamah, v:1, 1983,p:1.

⁵: ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، دمشق: مطبعة الكاتب العربي، ط:2، 1994م، ص:248.

Ibn Rasheeq Alqeerwani, al umdah fi muhasin al shir w aadaboho, damisque, matba al katib Alarabi,v:2, 1994, p:248.

⁶: المنصوري، تاريخ المنصوري، تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان، مطبع الحجاز، ط:1981، 1م، ص:96.

Almansoori, tarekh al mansori, talkhes al kashaf w al bayan fi hawadis al zaman, v:1,1981, matbat a alhijaz, p:96.

⁷: زمخشري، ديوان على الضفاف، تهامة، ط:1، 184م، ص:471.

Zamakhshri, diwan alazufaf, v:1, 1984, tahamah, p:471.

⁸: طاهر الزمخشري، مجموعة النيل، مطبوعات التهامة، جدة المملكة العربية السعودية، ط:1، 1984، ص481.

Tahir Zamakhshri, majmuaat nel, matboaat tahamah, jiddah saudia Alarabia, v:1, 1984, p:481.

⁹: المغربي، شعيرة مكان المقدس، الرياض، النادي الأدبي، ص:11.

Almaghrabi, shairiyah makan al muqaddas, Alriyadh, Alnadi aladabi, p:11.

¹⁰: زمخشري، ديوان أغاريد الصحراء، ط:1، 1404هـ، تهامة، ص:386-387.

Zamakhshri, diwan alagharidv:1, 1404h, tahamah, p:386-387.

¹¹: زمخشري، ديوان أغاريد الصحراء، ص:386.

Zamakhshri, diwan alagharid,p:386.

¹²: المغربي، ص:64.

Almaghrabi, p:64.

¹³: الزمخشري، ديوان أغاريد الصحراء، ص:346.

Zamakhshri, diwan albaghdad ,p:346.

¹⁴: مجموعة النيل: طاهر الزمخشري، بوابة الأفق للمعلومات، مكتبة الملك فهد الوطنية. ص:347.

Tahir zamakhshri, majmooat alnail, bwafat al ufuq lilmaalumaat, maktabat almalik fahad alwataniyah, p:347.

¹⁵: المرجع السابق، ص:378.

Almarjih alsabiq, p:378.